مُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء وسيد المرسلين... وبعد:

وتجيء الأزمة؛ كالكير الذي يُذهب خبثَ الحديد، كالنَّار التي تحرق الأرض فتعود أخصبَ مِن أخصبَ منها، كـالحمى تأخـذ الجسد وتطرحه وتمتصه لتطهره من الذنوب.. وتجيء الأزمـة وفي طيها خير للأمة:

لعل عتبك محمود عواقبـه ... وربما صحت الأجسام بالعللِ

وهكذا؛ لا تنفكُّ الأمة في كل زمن عن أزمـة تكـون لهـا كالصدمة الكهربائية التي تنفضها وتحرِّك دماءها الساكنة.

فيا ابن الإسلام؛ قد أقبلت عليك أزمة.. ولا بد لـك مـن موقف.. فهاك بعض المواقف، أسأل الله -تعالى- أن ينفعك بها، ويعيذنا من مضلات الأهواء والفتن.

أولاً: الثبات والتثبيت

﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ**﴾ [**الأنفال**:٤٥]

الأزمات عواصف تهز الأمة؛ ولا بد للأمة من تثبيت..

الهلع الذي يغمر القلوب الضعيفة يجعلها كالخشبة على ظهر الموجة، كورقة في ممر الريح.

القلوب الضعيفة عرضة للمد والجزر، وجذب الشياطين.. واليقين هو حظ المؤمنين.

فيا أيهذا الداعية! إذا جاءت الأزمة فصحْ بأعلى صوتك: «يا عباد الله! فاثبتوا»[1]؛ ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللّهَ**﴾[آل **عمران**: ٢٠٠]، ﴿**وَلاَ تَهِنُوا**﴾ [**آل عمران**: ١٣٩].

---

(١) روى مسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة، رقم (٥٢٢٨)، عن النواس بن سمعان رضي الله عنه أن النبي ﷺ ذكر الدجال..، الحديث وفيه: «إنه خارج خلة بين الشام والعراق، فعاث يميناً وعاث شمالاً؛ يا عباد الله! فاثبتوا..».

ولما لقينا عُصبةً تغلبيةً يقودون جُرداً للمنية ضمَّرا
سقيناهم كأساً سقونا بمثلها ولكننا كنا على الموتِ أصبرا!

في الغار.. في أزمة الهجرة.. تجمَّع شرذمة من دولة قريش يطاردون رأس الأمة ﷺ، يلاحقونه في الجبال.. في الكهوف.. في كل الدروب، يرسلون العيون، يتتبعون الآثار، حتى وقفوا على رأسه، وهنا يلتفت أبو بكر ﷺ إلى رسول الله ﷺ خائفاً عليه.. و لم يعلم أن في جوف الجبل مَنْ هو أشد ثباتاً من الجبل.

قال أبو بكر ﷺ: كنت مع النبي ﷺ في الغار فرأيت آثار المشركين؛ قلت: يا رسول الله، لو أن أحدهم رفع قدمه رآنا! قال: «ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟»[1].

ويستمر الثبات والتثبيت، قال أبو بكر: واتَّبَعَنَا سراقة بن مالك

(1) رواه البخاري في فضائل القرآن، رقم (٤٦٦٣)، ومسلم في فضائل الصحابة، رقم (٤٣٨٩)، عن ثابت البناني: حدثنا أنس قال:حدثني أبو بكر به.

ونحن في جَلَدٍ من الأرض، فقلت: يا رسول الله، أُتينا! فقال: «لا تحزن إن الله عنا»، فدعا عليه رسول الله ﷺ فارتطمت فرســه إلى بطنها..[1]

﴿إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَـانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَـا فَأَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَـلَ كَلِمَـةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠]

وفي يوم اليرموك.. حين تغطرس النصارى، فقال أبو بكـر: والله! لأشغلن النصارى عن وساوس الشيطان بخالد بن الوليـد!

---

(1) رواه البخاري في كتاب المناقب، رقم (٣٦٥٢)، ومسـلم في كتـاب الزهد، رقم (٥٣٢٩)؛ عن البراء بن عازب..، وهي كقصة موسى -عليـه السلام- حين سرى بعباد الله فأقبل فرعون، **﴿فلما تـرآى الجمعـان قـال أصحاب موسى إنا لمـدركون (٦١) قـال كـلا إن معـي ربي سـيهدين﴾ [الشعراء: ٦١-٦٢]** .

فجاءهم خالد، وجـــاءت الروم في تعبئة لم ير الراؤون مثلها قط؛ في مائتين وأربعين ألف علج، والمســـلمون لا يبلغـــون أربعين ألفاً، فالتفت رجـــل من المسلمين إلى خالد بن الوليد فقال: ما أكثر الروم وأقل المسلمين! فقال سيف الله خالد بن الوليد: ويلك! بئس ما قلت، أتخوّفني بالروم؟ بل مـــا أكثـــرَ المسلمين وأقلَّ الروم، وإنما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان! وودت والله! أن الأشقر -يعني فرسه- برأ من توجُّعه، وأنهـــم أُضعفوا في العدد![1]

وثبتوا فثبتهم الله، ونصروا الله فنصرهم الله:

كم صاحبٍ يبكي على الدهرِ يشكو لنـــا مـــن واقـــعٍ مـــرِّ
أبـــداً يعـــدِّدُ مـــا بأمتنـــا ويظلُّ ينفث زفـــرةَ الصـــدرِ!
كفكفْ شكاتك ليس ينفعنـــا دمعٌ جرى في الخـــدِّ والنحـــرِ

---

(1) البداية والنهاية، في ذكر معركة اليرموك، من أحداث سنة ١٣هـــ.

املأ فؤادك من تفــــاؤله أشرقْ بوجـــهٍ باســـمِ الثغـــرِ
لا تنكسرْ؛ فالحربُ قائمـــةٌ بين الهُدى وشـــراذمِ الكفـــرِ
واليأسُ يهزم نفسَ صـــاحبهِ قبل اللقا، ويعـــودُ بالخســـرِ!

ثانياً: وتثبيت العلماء

والعلماء بَشَرٌ؛ تعصف بهم الفتن كما تعصف بالناس، ويرتفع الإيمان وينخفض، وتشتد العزيمة وترتخي، ويميل ويثبت، وما زال السلف يوصي بعضهم بعضاً أن اصبروا:

في موقف ينسى الحليم سداده ويطيش فيه النابه البيطارُ

العلماء بَشَرٌ، وقد يستوحش الطريق لقلة السالكين.. فكن معهم!

وإذا كانت كلمة العلماء تعني شيئاً وقت الرخاء فهي أعظم وقت الأزمة، لقد ارتدت يوم الردة قبائل، وثبت أهل (جواثا) بكلمة قالها الجارود بن المعلى..

في ترجمة إمام السنة والثابت يوم المحنة أحمد بن حنبل: «قال صالح بن أحمد: سمعت أبي يقول: صرنا إلى الرحبة، ورحلنا منها في جوف الليل، فعرض لنا رجل، فقال: أيكم أحمد بن حنبل؟

فقيل له: هذا. فقال للجمَّال: على رِسلك. ثم قال: يا هذا، ما عليك أن تُقتل ها هنا وتدخل الجنة؟ ثم قال: أستودعك الله. ومضى فسألت عنه فقيل لي: هذا رجل من العرب من ربيعة يعمل الشَّعَر في البادية! يقال له: جابر بن عامر، يُذكر بخير...!

قال أحمد بن حنبل: ما سمعت كلمة منذ وقعت في هذا الأمر أقوى من كلمة أعرابي كلمني بها في رحبة طوق؛ قال: يا أحمد، إن يقتلك الحق مت شهيداً، وإن عشت عشت حميداً. فقوَّى قلبي!»[1].

تالله! ما الدعواتُ تُهزم بالأذى	**أبداً، وفي التاريخ برٌّ يميني**
ضع في يديَّ القيدَ، ألهبْ أضلعي	**بالسوطِ، ضع عنقي على السكينِ**
لن تستطيع حصارَ فكري ساعة	**أو ردَّ إيماني ونور يقيني**
فالنورُ في قلبي، وقلبي في يدَيْ	**ربي، وربي حَافظي ومعيني**

(1) انظر: تاريخ الإسلام: ص ٤١٦٦، وسير أعلام النبلاء: (١١/ ٢٤١).

فهذه أزمة (فتوى).. أزمة (كلمة الحق)..! جاء فيها الأعرابي الضعيف -لم يحقر نفسه- يثبِّت فيها عَلَمَ الأمَّة..؛ فلم تكن هناك كلمة أقوى منها في قلب أحمد: ﴿**وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ(٣)**﴾[العصر: ١-٣]

ثالثاً: ترسيخ الإيمان

في الأزمة تقبل القلوب على خالقها.. تلتفت إلى أعلى، ﴿وَظَنُّواْ أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ﴾[التوبة: ١١٩]، وكلما رأت القلوب أن الدنيا أدبرت عنها أقبلت هي على الآخرة! فيا أيها الداعية!.. خذ بزمام القلوب وقدها إلى الله.

على الدعاة أن يستثمروا الأزمة.. أن يجعلوها موسماً إضافياً من مواسم الدعوة.. فهو موسم حافل، عليهم أن يضيفوا إلى أنشطتهم برنامجاً اسمه: برنامج الأزمة، ولجنة اسمها: لجنة الأزمة، عليهم أن يضخوا القلوب بمعاني الإيمان والتوكل والرغبة والرهبة والإنابة، أن يصيحوا بهم، أن يلقوا لهم بحبل التوبة في لجة الأزمة..

وهناك سبب ثانٍ يدفعنا إلى الحرص على بث الإيمان؛ هو أن الأزمة لا تخلو من فتنة وظلمة وجفاف وتيه؛ وفي الإيمان نور وغيث وهداية..

الأزمة تصيب القلوب.. تغمرها بالخوف والفوضى وتـــزاحم الإيمان.. فلا بد أن تملأ قلبك، أن تتصل بـــالله، أن تشـــحن القـــلوب؛ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ وَاذْكُرُواْ اللّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلَحُونَ﴾[الأنفال: ٤٥].

لمعت نارُهم وقد عسعس الليـــ ـــلُ وملَّ الحادي وحار الدليلُ
فتأملتها وفكري مـــن البـــــ ـــين عليلٌ وطرف عيني كليلُ
وسألنا عن الوكيـــل المرجَّـــى في الملمَّات هل إليـــه ســـبيلُ؟
فوجدناه صاحب الملـــك طـــراً أكرمَ المجـــزلين فـــردٌ جليـــلُ

عن هند بنت الحارث الفراسية أن أم ســـلمة زوج الـــنبي ﷺ قالت: استيقظ رسول الله ﷺ ليلة فزعاً يقول: «سبحان الله! ماذا أنزل الله من الخزائن! وماذا أنزل من الفتن! من يوقظ صـــواحبَ الحُجُرات -يريد أزواجه- لكي يصلين؟ رُبَّ كاســـيةٍ في الـــدنيا عاريةٍ في الآخرة»[1].

---

(1) رواه البخاري كتاب الفتن، رقم (٧٠٦٩).

قال ابن حجر -رحمه الله-: (وفي الحديث استحبابُ الإسراع إلى الصلاة عند خشية الشر؛ كما قال تعالى: ﴿**وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ**﴾[**البقرة**:٤٥]، وكان ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة، وأمر من رأى في منامه ما يكره أن يصلي،.. وفيه التسبيح عند رؤية الأشياء المهولة، وفيه تحذير العالم مَنْ يأخذ عنه من كل شيء يتوقع حصوله، والإرشاد إلى ما يدفع ذلك المحذور، والله أعلم)[١]، وقال في موضع آخر: (في الحديث الندب إلى الدعاء، والتضرع عند نزول الفتنة، ولا سيما في الليل لرجاء وقت الإجابة؛ لتُكشف، أو يسلم الداعي ومَنْ دعا له، وبالله التوفيق)[٢] .

ويقال هنا أيضاً: ولتكون الصلاة زاداً في طريق الأزمة المظلمة: «بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم؛ يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً، أو يمسي مؤمناً ويصبح كافراً، يبيع دينه بعَرَضٍ من

---

(1) فتح الباري: (١ / ٢١١).
(2) فتح الباري: (١٣ / ٢٣).

الدنيا»[1]، ﴿**وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى**﴾[**البقرة**: ١٩٧].

عن معقل بن يسار ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «العبادة في الهَرْج كهجرة إلي»[2]

وهناك سبب ثالث يدفعنا إلى الحرص على بث الإيمان، وهو أن الإيمان أمان، و﴿**إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا**﴾[**الحج**: ٣٨]؛ فبقدر الإيمان تكون المدافعة، ﴿**وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ**﴾[**العنكبوت**:٦٩]، فبقدر الإحسان تكون المعية،﴿**أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ**﴾[**غافر**: ٣٦]؛ فبقدر العبودية تكون الكفاية.

خذوا إيمانَ إبراهيمَ تنبتْ لكم في النارِ جنَّاتُ النعيمِ

في اليرموك.. في غور الأردن.. والأزمة أزمة روم، انتصب سيف الله المسلول خالد بن الوليد يلقي على جيشه درسه التربوي

---

(1) رواه مسلم في كتاب الإيمان، رقم (١٦٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(2) رواه مسلم في كتاب الفتن، رقم (٥٢٤٢).

الدعوي، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: (إن هذا يوم من أيام الله، لا ينبغي فيه الفخر ولا البغي، أخلصوا جهادكم، وأريدوا الله بعملكم؛ فإن هذا يوم له ما بعده..).

وبعث قائدُ الروم جاسوساً من نصارى العرب، فاندسَّ في الجيش وأقام يوماً وليلة يكتب التقارير، ثم رجع فسأله قائده: ما وراءك؟ فقال له يصف المسلمين: (هم قوم يقومون الليل يصلون، ويصومون النهار، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، رهبان بالليل أُسْدٌ بالنهار، لو يسرق ملكهم لقطعوا يده، ولو زنى لرجموه؛ لإيثارهم الحق، واتباعهم إياه على الهوى. فقال: لئن كان هؤلاء القوم كما تزعم؛ لبطن الأرض خير لمن يريد قتالهم من ظهرها، ولوددت أن حظي من الله أن يخلي بيني وبينهم؛ فلا ينصرني عليهم ولا ينصرهم علي!).

وتقابل الجيشان؛ وتوزع القرَّاء بين المسلمين قبل المعركة؛ يقرؤون سورة الأنفال ويتذاكرونها، ويحثون الكتائب على الصبر

ويثبتونها، حتى إن أبا هريرة جعل يقول: سارعوا إلى الحور العين وجوار ربكم -عز وجل- في جنات النعيم. وحتى إن أبا سفيان كان يطوف على فرق الجيش ويقول: «الله الله! إنكم ذادة العرب وأنصار الإسلام، وإنهم ذادة الروم وأنصار الشرك، اللهم إن هذا يوم من أيامك، اللهم أنزل نصرك على عبادك».

والتحم الجيشان، وتبايع المسلمون الصادقون على الموت، ودمدمت المعركة يوماً وبعض يوم، ثم انقشع الغبار، وقد استُشهد من المسلمين ثلاثة آلاف؛ فيهم جمع من أصحاب رسول الله ﷺ، وقُتل من الروم مائة ألف، والباقون شريد أو أسير.

فلما علم بذلك هرقل الروم -وكان في حمص- خرج يائساً من الشام وقال قولته الباكية: (سلام عليك يا سورية؛ سلام مودِّع لا يرى أنه يرجع إليك أبداً!)[1].

---

(1) انظر: البداية والنهاية، في أحداث سنة ١٣هـ، والفتوح الإسلامية عبر العصور، لعبد العزيز العمري، ص١١٨.

هل الدين إلا معقلٌ نحتمي بــهِ إذا دلف العادي إلينــا فأســرعا؟
هو الدين إن يذهب فلا عزَّ بعدهُ وإن جدَّ ساعينا على إثر من ســعى

رابعاً: توضيح الدين

في الأزمات يكثر السؤال، والقيل والقال، تتفرع الأسـئلة.. تتزايد، ويفجِّر الموقف الواحد ألف سؤال وسؤال..

وتتلفت الأمة إلى قامات العلماء ليسمعوا الكلمة.. والكلمـة هنا غالية، غالية لأنها قد تكلف الإنسان رأسه.. أو ظهـره.. أو وظيفته، أو على الأقل ذماً ونفوراً.. وغالية لأنها قد تخالف هوى مَنْ فوقه أو مَنْ تحته أو مَنْ معه، أو حتى هوى نفسه!

وحينئذٍ فلا بد من قيام لله بتوضيح الدين؛ خاصة إذا مُسّـت الأمة في عقيدتها، وشُوِّش التوحيد، وهُشّمت الثوابـت، ونطـق الرويبضة، فهنا: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقَـيرًا فَاللّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ وَإِن تَلْوُواْ أَوْ تُعْرِضُـواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا**﴾[**النساء**: ١٣٥]، و (الليّ): هـو

الكذب أو التحريف، و (الإعراض) كتمان الحق؛ وهلكة العلماء في أحد هذين.

قال عبد الله بن أحمد بن حنبل: حدثني أبو معمر القطيعي قال: لما أُحضرنا إلى دار السلطان أيام المحنة، وكان أحمد بن حنبل قد أُحْضِر؛ فلما رأى الناس يجيبون -وكان رجلاً ليناً- فانتفخت أوداجه، واحمرَّت عيناه، وذهب ذلك اللين، فقلت: إنه قد غضب لله، فقلت له: أبشر.. كان من أصحاب رسول الله ﷺ من إذا أُريدَ على شيء من أمر دينه؛ رأيت حماليق عينيه في رأسه تدور كأنه مجنون![1].

ثمن المجد دمٌ جدنا به فاسألوا كيف دفعنا الثمنا

وافتح كتب التاريخ؛ لتجد صفحات أول أزمة بعد حياة الرسول ﷺ؛ أزمة تشتبك فيها السياسة الخارجية بالسياسة

---

(1) حلية الأولياء: (٩/١٩٤).

الداخلية بمسائل التوحيد والفقه؛ فيأتي عَلَمُ الأمة أبـــو بكـــر ﷺ فيقذف بكلمته ويوضح بها الدين.

في الصحيحين من حديث عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بـــن مسعود، أن أبا هريرة ﷺ قال: لما توفي رسول الله ﷺ كان أبـــو بكر ﷺ، وكفر من كفر من العرب؛ فقال عمر ﷺ:كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ : «أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله؛ فمن قالها فقد عصم مني ماله ونفســـه إلا بحقـــه، وحسابه على الله»؟ فقال: والله! لأقاتلن من فرق بـــين الصـــلاة والزكاة؛ فإن الزكاة حق المال، والله! لو منعـــوني عناقـــاً كـــانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها. قال عمر ﷺ: فو الله ما هو إلا أن قد شرح الله صدر أبي بكـــر رضـــي الله عنـــه؛ فعرفت أنه الحق»[1].

---

(1) البخاري في كتاب الزكاة، رقم (١٤٠٠)، ومسلم في كتاب الإيمـــان، رقم (٢٦).

ضجرَ الحديدُ من الحديد ولم يزلْ   في نصرِ «دين محمدٍ» لم يضجرِ
حلف البليدُ ليظفرنَّ بمثلهِ   حنثت يمينُك يا بليدُ فكفِّرِ!

واعلم أن المعاني المجردة من التطبيق قد يتمدَّد العلماء -وأنصاف العلماء وأرباعهم- في تنظيرها؛ يرفعون ويخفضون، ويوجبون ويحرمون، ويحكمون ويرسمون المواقف، فإذا وقعت الأزمةُ ووجب أن تُترجم تلك المعاني إلى مواقف، إلى حركة، إلى ثمن، إلى نعم أو لا؛ فهنا تكعُّ النفوس، أو يتغير الموقف؛ خوفاً أو ضعفاً أو جهالةً إلا من شاء الله.

وقد تكون المسألة بغاية الوضوح وقت الرخاء؛ فإذا وقعت الواقعة فكأنما غشيتها غمامة!

قال ابن كثير في أحداث التتار: (وقد تكلم الناس في كيفية قتال هؤلاء التتر من أي قبيلٍ هو؛ فإنهم يُظهرون الإسلام وليسوا بغاة على الإمامِ؛ فإنهم لم يكونوا في طاعته في وقت ثم خالفوه؟ فقال الشيخ تقي الدين: هؤلاء من جنس الخوارج الذين خرجوا

على عليّ ومعاوية ورأوا أنهم أحق بالأمر منهما، وهؤلاء يزعمون أنهم أحق بإقامة الحق من المسلمين، ويعيبون على المسلمين ما هم متلبسون به من المعاصي والظلم، وهم متلبسون بما هو أعظم منه بأضعاف مضاعفة. فتفطن العلماء والناس لذلك، وكان يقول للناس: إذا رأيتموني من ذلك الجانب وعلى رأسي مصحف فاقتلوني. فتشجع الناس في قتال التتار، وقويت قلوبهم ونياتهم، ولله الحمد)[1].

ولقد تساءل أحدهم يوماً فقال: (هل غابت معاني القرآن في أحداث العراق؟.. فالناظر إلى حال أهل الإسلام تجاه نازلة العراق يرى انحساراً وذهولاً عن معاني القرآن، ومن ذلك قوله -تعالى-: ﴿**وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ**﴾[**المائدة**: ٥١]، فمظاهرة الكفار

---

(1) البداية والنهاية، في ذكر أحداث سنة ٧٠٢ هـ، وقد أشار شيخ الإسلام ابن تيمية في أكثر من موضع إلى أنهم أعظم خروجاً من شريعة الإسلام من مانعي الزكاة والخوارج، فانظر ذلك في الفتاوى: (٢٨ / ٥٠٣، ٥١٨، ٥٤٦) وما قبلها وما بعدها.

على أهل الإسلام ردة وخروج عن الملة... وها هو شيخ الإسلام ابن تيمية -مع سعة علمه ورحابة صدره- يقرر ذلك بكل صرامة قائلاً: (فمن قفز منهم إلى التتار كان أحق بالقتال من كثير من التتار؛ فإن التتار فيهم المكره وغير المكره، وقد استقرت السنَّة بأن عقوبة المرتد أعظم من عقوبة الكافر الأصلي من وجوه متعددة)؛ مع أن الحكم على التتار -في حد ذاته- مشكل على بعض أهل العلم، لكن الإمام ابن تيمية يقطع بكفرهم، وكفر من لحق بهم وظاهرهم، فما ظنك بالقتال مع الأمريكان الصليبيين المقطوع بكفرهم وظلمهم واستبدادهم؟!

ولم يقتصر علماء الدعوة السلفية على مجرد تنظير هذه المسألة، بل نزَّلوا هذا الحكم الشرعي على ما يلائمه من الوقائع، وبكل رسوخ وتحقيق، والناظر إلى رسالتَي: (الدلائل) للشيخ سليمان ابن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، و (النجاة والفكاك من

موالاة المرتدين وأهل الإشراك) للشيخ حمد بن عتيـــق، ومناســـبة تأليفهما؛ يدرك جلياً صرامة هؤلاء الأعلام تجاه هذه القضية)[1].

---

(1) من مقال للشيخ عبد العزيز بن عبد اللطيف، في موقع الإسلام اليـــوم، زاوية مقال الأربعاء، بتاريخ ١٤٢٤/١/١٧هـ.

خامساً: استشعار الأزمة!

وقد تمرُّ الأزمة بالأمة فلا يبالي الرجل بما كان وما يكون، العالَم يضطرم وهو في ثلاجة؛ كأن الأزمة مجرد شهر جديد من شهور السنة؛ تسير حياته فيه كما سارت في الشهر الذي قبله! لم يُغير جدوله، ولم يُعِدَّ نفسه، ولم يضع بصمته في صفحة الأزمة؛ وربما دهمته الأزمة وخنقته وقد فرَّط.

إذا المرء لم يحتلْ وقد جدَّ جدهُ أضاع وقاسى أمرَه وهو مدبرُ

لقد كان الإمام مالك -رحمه الله- يترك التحديث في رمضان ليفرغ إلى تعبد الصلاة والذكر، ولقد عرض للأمة نازلة توجب الاشتغال بما هو أعظم من نوافل التحديث.

وأعظم من ذلك أن ترى ذا العلم وذا الدعوة يرى الأزمة تركض إليه وإلى قومه، في يدها الفتنة والضلال، تقسم بالله لأغوينكم أجمعين، ولأقتلنكم، ولأقطعن أيديكم أرجلكم من

خلاف، ولأصلبنكم؛ وهو لم يحرِّك ساكناً و لم يُسَكِّن متحركـــاً؛ ليس لغفلة أو لجهالة أو لعجز فيُعذر، بل تعامياً وتماوتاً، ومـــوت القلوب أشد من موت الأبدان:

أبنيَّ! إنَّ من الرجال حجـــارةً في صورة الرجلِ السميعِ المبصـــرِ
فطنٌ بكل مصـــيبة في مالـــهِ وإذا أصـــيب بدينـــه لم يشـــعرِ

وقد غضب ابن القيم -رحمه الله تعالى- يوماً، فقال في أعلام الموقعين كلاماً جزيلاً طويلاً، ننقله لك بطوله وعرضه، حيث كان كتلةً من المعاني:

(ولله -سبحانه- على كل أحد عبودية بحسب مرتبته -سوى العبودية العامة التي سوَّى بين عباده فيها-؛ فعلى العالم من عبوديته نشر السنَّة والعلم الذي بعث الله به رسوله ما ليس على الجاهل، وعليه من عبودية الصبر على ذلك ما ليس على غـــيره، وعلـــى الحاكم -من عبودية إقامة الحق وتنفيذه، وإلزامه من هو عليه به، والصبر على ذلك والجهاد عليه- ما ليس على المفتي، وعلى الغني

من عبودية أداء الحقوق التي في ماله ما ليس على الفقير، وعلى القادر على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بيده ولسانه ما ليس على العاجز عنهما..

وتكلم يحيى بن معاذ الرازي يوماً في الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقالت له امرأة: هذا واجب قد وُضع عنا. فقال: هبي أنه قد وضع عنكن سلاح اليد واللسان؛ فَلَمْ يوضع عنكن سلاح القلب! فقالت: صدقت، جزاك الله خيراً.

وقد غرَّ إبليسُ أكثر الخلق بأن حسَّن لهم القيام بنوع من الذكر والقراءة والصلاة والصيام والزهد في الدنيا والانقطاع، وعطلوا هذه العبوديات فلم يحدِّثوا قلوبهم بالقيام بها، وهؤلاء عند ورثة الأنبياء من أقل الناس ديناً؛ فإن الدين هو القيام لله بما أمر به، فتارك حقوق الله التي تجب عليه أسوأ حالاً عند الله ورسوله من مرتكب المعاصي؛ فإن ترك الأمر أعظم من ارتكاب النهي من أكثر من ثلاثين وجهاً ذكرها شيخنا -رحمه الله- في بعض تصانيفه.

ومن له خبرة بما بعث الله به رسوله ﷺ وبما كان عليـــه هـــو وأصحابه؛ رأى أن أكثر من يشار إليهم بالدين هم أقل الناس ديناً -والله المستعان-، وأيُّ دين وأيُّ خير فيمن يرى محارم الله تُنتهك، وحدوده تُضاع، ودينه يترك، وسنة رسول الله ﷺ يُرغب عنـــها؛ وهو باردُ القلب، ساكتُ اللسان شيطانٌ أخرس؛ كما أن المتكلم بالباطل شيطان ناطق، وهل بلية الدين إلا من هـــؤلاء الـــذين إذا سلمت لهم مآكلهم ورياساتهم فلا مبالاة بما جرى على الـــدين، وخيارهم المتحزِّن المتلمِّظ؛ ولو نوزع في بعض ما فيه غضاضـــة عليه في جاهه أو ماله؛ بذَّل وتبذَّل، وجدَّ واجتهـــد، واســـتعمل مراتب الإنكار الثلاثة بحسب وسعه!

وهؤلاء مع سقوطهم من عين الله ومقت الله لهم؛ قد بُلـــوا في الدنيا بأعظم بليّة تكون لهم وهم لا يشعرون، وهو موت القلب؛ فإن القلب كلما كانت حياته أتم كان غضبه لله ورسوله أقـــوى، وانتصاره للدين أكمل، وقد ذكر الإمام أحمدُ وغيره أثـــراً أن الله

-سبحانه- أوحى إلى ملك من الملائكة أن اخسف بقرية كذا وكذا، فقال: يا ربّ! كيف وفيهم فلان العابد؟ فقال: به فابدأ؛ فإنه لم يتمعَّر وجهه فيَّ يوماً قط. وذكر أبو عمر في كتاب التمهيد أن الله -سبحانه- أوحى إلى نبي من أنبيائه أن قل لفلان الزاهد: أما زهدك في الدنيا فقد تعجَّلت به الراحة، وأما انقطاعك إليَّ فقد اكتسبت به العز، ولكن ماذا عملت فيما لي عليك؟ فقال: يا ربّ! وأي شيء لك علي؟ قال: هل واليت فيَّ ولياً أو عاديت فيَّ عدواً؟) انتهى[(١)].

إذن؛ أول القواعد في استثمار الأزمة أن تستشعر الأزمة.. والباقي في الطريق!

لستَ بحاجة لأن أقول لك: إن التفاعل المطلوب مع الأزمة هو التفاعل الإيجابي؛ التفاعل الذي يدفعك، ويحركك، ويرفع وعْيَك، وليس هو القلق والرجفة والقنوط، ليس هو الهمَّ الذي يحاصرك، ويجمّد أعضاءك، ويقتل حماسك وفكرتك.

---

(1) أعلام الموقعين عن رب العالمين: (٢ / ١٧٧).

سادساً: استنهاض الهمم

السيوف والقنابل قبل أن تقصف الرؤوس تقصف الهمم!

الرعب طليعة الجيش، وجيوش الهموم تسبق جيش الناس لتحارب العزائم، تخوِّفها، تخورها، تسحبها إلى الوراء، تجذبها إلى الأرض.. وعلى الأمة أن تستنهض هممها، وأن تشعلها.. بل تفجِّرها تفجيراً..

استنهاض الهمم بالآي، بالحديث، بالخطبة، بالقصة، بالشعر.. بالموقف الشجاع.

لما خرج المسلمون إلى مؤتة للقاء النصارى قال المسلمون: صحبكم الله ودفع عنكم، وردكم إلينا صالحين. فقال عبد الله بن رواحة:

لكنني أسأل الرحمن مغفرةً وضربةً ذات فرغٍ تقذف الزبدا
أو طعنةً بيدَي حرانَ مجهزةً بحربةٍ تنفذ الأحشاء والكبدا
حتى يقال إذا مروا على جَدَثي: أرشده اللهُ من غاز وقد رشدا

وخرج جيش المسلمين بثلاثة آلاف، وجيش الصليب يمـــوج بمائتي ألف مقاتل، كفتان غير متكافئتين في نظر الحسبة العسكرية الفقيرة! (فلما بلغ ذلك المسلمين أقاموا على معان [بالأردن] ليلتين ينظرون في أمرهم، وقالوا: نكتب إلى رسول الله ﷺ نخبره بعـــدد عدوِّنا؛ فإما أن يمدَّنا بالرجال، وإما أن يأمرنا بأمره فنمضي لـــه. فشجَّع الناسَ عبدُ الله بن رواحة وقال: يـــا قـــوم! والله إن الـــتي تكرهون للتي خرجتم تطلبون؛ الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنـــا الله بـــه، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين؛ إما ظهور وإما شهادة! فقـــال الناس: قد والله! صدق ابن رواحة. فمضى الناس)[1]، وقد والله! صدق ابن رواحة، وفتح الله عليهم.

---

(1) البداية والنهاية، لابن كثير، في حوادث سنة ٨هـــ. واعلم أن مؤتة من أرض البلقاء شرقي الأردن، وأن سبب المعركة هو أن النبي ﷺ جهـــز هـــذا الجيش انتقاماً لمقتل رجل واحد فقط هو الحارث ابن عمـــير الأزدي، حين=

وفي القرن السابع؛ جاء التتار يزحفون مـــن مشـــرق الأرض، يأكلون الأخضر واليابس، والبلدان والقرى والناس، يســـيلون في كل واد، يبتلعون كل شيء.. سقطت الهند والســـند ومـــا وراء النهرين وفارس، وابتلعوا بغداد عاصمة الخلافة، وقضموا من الشام وفلسطين..

وذعر الناس، وهُزموا هزيمتهم النفسية، وهربوا وهربت قبلهم هممهم!، وظنَّ بعضهم أنها القيامة، وأنهم يأجوج ومأجوج، وظن بعضهم أن لا طاقة لنا اليوم بهولاكو وجنوده، وطفق عُبّاد التراب والكرسي من النصارى والمتمسلمين إلى الإخذاء للتتر، وفتحـــوا الأبواب ودفعوا الأموال، (حتى أمدهم الـــبعض بجنـــد مســـلمين ليشاركوهم في احتلال المواقع الإسلامية الأخرى، يضاف إلى ذلك أن النصارى في بلاد الشام وأرمينية -خصوصـــاً ملـــك أرمينيـــا

=حمل رسالة النبي ﷺ إلى شرحبيل أمير غسان فقتلـــه..، ثم جـــاء جـــيش الصليب.

هيثوم- قدَّموا كل دعم للمغول، وشاركوهم في غزو بعض مدن الشام ومنها حلب ودمشق، حتى تمكنوا من الوصول إلى فلسطين)[1].

فخرج إليهم جيش الإسلام من مصر يتقدمهم المظفر قطز -رحمه الله-، وكان حديث عهد بالولاية ليس له غير أشهر، ولكنه كان ذا صلاح وتقى، بعيداً عن الخمر واللهو، كثير الصلاة في الجماعة.

وقد أرسل هولاكو خطاباً عنيفاً يتهدَّد فيه المسلمين ويتوعدهم، ومما قال فيه: (نحن قد فتحنا بغدادَ بسيف الله تعالى! وقتلنا فرسانها، وهدمنا بنيانها، وأسرنا سكانها، فاتعظوا بغيركم، وأسلموا إلينا أمركم، قبل أن ينكشف الغطاء، فتندموا ويعود عليكم الخطا، فنحن ما نرحم من بكى، ولا نرق لمن شكا، وقد سمعتم أننا فتحنا البلاد، وطهرنا الأرض من الفساد، وقتلنا معظم

(1) انظر: الفتوح الإسلامية عبر العصور، لعبد العزيز العمري، ص٣٤٢.

العباد.. فالحصون لدينا لا تمنع، والعساكر لقتالنا لا تنفع، ودعاؤكم علينا لا يُسمع، فإنكم أكلتم الحرام، ولا تعفّون عند كلام، وخنتم العهود والأيمان، وفشا فيكم العقوق والعصيان) إلى آخر الرسالة..[١]

ولما جاءت رسالته جمع قطز القضاة والعلماء، والقادة والأمراء، وأطلعهم عليه واستشارهم، فمنهم من قال بالاستسلام والصغار، ومنهم من أشار بالفرار، وقال بعضهم: إلى المغرب أو اليمن حيث لم يصل المغول بعد. فغضب قطز وقال: «يا أمراء، لكم زمان تأكلون أموال بيت المال، وأنتم للغزاة كارهون! وأنا متوجِّه، فمن اختار الجهاد ليصحبني، ومن لم يختر ذلك يرجع إلى بيته؛ فإن الله مطلع عليه، وخطيئة حريم المسلمين في رقاب المتأخرين)[٢].

(1) انظر: تاريخ مختصر الدول، للعبري، ص٢٤٧، وانظر: المصدر السابق.
(2) انظر: الفتوح الإسلامية عبر العصور، لعبد العزيز العمري، ص٣٤٢.

فخرج بنفسه -رحمه الله-، والتقى الجيشان في (عين جالوت) في غور الأردن، وتردَّد بعض الأمراء في القتال؛ فقال قطز: أنا ألقى التتار بنفسي، فتشجع الأمراء والقواد.

وكان المظفر -رحمه الله- شجاعاً مهيباً؛ (ذكر عنه أنه لما كان بالمعركة يوم عين جالوت قُتِل جواده، ولم يجد أحداً في الساعة الراهنة من الوشاقية الذين معهم الجنائب، فترجَّل وبقي واقفاً كذلك على الأرض، ثابتاً في محل المعركة وموضع السلطنة من القلب، فلما رآه بعض الأمراء ترجل عن فرسه وحلف على السلطان ليركب، فامتنع السلطان وقال: ما كنت لأحرم المسلمين نفعك! ولم يزل كذلك حتى جاءت الوشاقية فركب.

فلامه بعض الأمراء وقال: يا خوند! لم لا ركبت فرس فلان؛ فلو كان رآك بعض الأعداء لقتلك وهلك الإسلام بسببك؟! فقال: أما أنا فكنت أروح إلى الجنة، وأما الإسلام فله ربٌّ لا

يضيعه؛ قد قُتل فلان وفلان وفلان -وعدَّد خلقاً من الملوك- فلم يُضع الله الإسلام!).

ماضٍ، وأعرف مـا دربي ومـا هـدفي والموت يرقص لي في كلِّ منعطـفِ
ومـا أبـالي بـه حـتى أحـاذرهُ فنكتة الموت عندي أبـرد الطـرفِ
ولا أبـالي بأشـواكٍ ولا محـنٍ على طريقي، وبي عزمي، ولي شغفي
والناس تصرخ أحجمْ، والوغى نشـبتْ والله يهتـف بي: أقـدمْ ولا تخـفِ
ماضٍ، فلو كنتُ وحدي والدنا صرختْ بي: قِفْ، لسرتُ فلم أبطئ ولم أقِفِ!

وفي هذه المعركة حمل التتار بقيادة (كتبغانوين) على ميسـرة المسلمين فكسروها؛ ففزع المسلمون وانكشفوا، فلما رأى ذلـك المظفر -رحمه الله- رمى الخوذة من علـى رأسـه وصـرخ في المسلمين: وا إسلاماه! وا إسلاماه! وا إسلاماه! فتشجعت الهمـم وطارت إليه:

مَنْ لي بجيلٍ نداء الموت يطربـهُ وللرصاص بساحاتِ الفدا زجلُ
لبيك لبيك يا صوت الجهاد فقد أجابك القلبُ والأشواقُ والمقلُ
لو لم تسرْ قدمٌ سارت بنا مهـجٌ تكاد عنـا إلى لقيـاك ترتحـلُ!

(ثم أيد الله المسلمين وثبتهم، فحملوا حملة صادقة على التتـــار فهزموهم هزيمة لا تجبر أبداً، وقُتل كتبغانوين في المعركة، وأُســـر ابنه، وكان شاباً حسناً؛ فأُحضر بين يدي المظفر قطز، فقال لـــه: أهَرَبَ أبوك؟ قال: إنه لا يهرب. فطلبوه فوجدوه بين القتلى، فلما رآه ابنه صرخ وبكى، فلما تحققه المظفر قال: ..كان هذا ســـعادة التتار وبقتله ذهب سعدهم. وهكذا كان كما قال، ولم يفلحـــوا بعده أبداً، وكان قتله يوم الجمعة الخامس والعشرين من رمضان، لعنه الله تعالى)[1].

(1) انظر في النقول: البداية والنهاية، في أحداث عين جالوت، وفي ترجمتـــه للمظفر من وفيات سنة ٦٥٨هـــ.

سابعاً: تجميع الصفوف

تأبى الرماح إذا اجتمعن تكسراً وإذا افترقن تكسَّرت آحـــادا

والريح أشدُّ من الرياح، وإذا كانت اليد الواحدة لا تصـــفق؛ فإن الأيدي المتعددة -ما لم تُضبط- تعترك وتتخاصم.

لا شك؛ لن تجعلها صفاً واحداً، لكن استووا وتراصوا، وأتموا الصف الأول فالأول!..

نحتاج إلى رصِّ الصفوف والقلوب والجهود، ونحتاج إلى نشر أدب الخلاف وفقه الأخوة مع قاموس نظيف للألفاظ، ونحتـــاج -ثالثاً- إلى النصح، والتصحيح، وبيان الحق، والصبر على ذلك..

ولا شك أن المقصود ليس هو الاجتماع فقط، ولـــيس هـــو كونك على شيء من حق فقط، ولكن المقصود الاجتماع علـــى الحق، والله يقول: ﴿**وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًـــا وَلاَ تَفَرَّقُـــواْ**﴾ [**آل عمران**: ١٠٣]، وأول من نحتاج إلى الالتفاف حولـــه ورصِّ

الصف معه: العلماء العاملون، والمجاهدون المؤمنون، والدعاة الصادقون.

دربنا واحدٌ فكيف افترقنا؟ لا يكن حظ نفسنا مبتغانا
نحن في الدين إخوة فلماذا يعتلي صوتنا ويخبو إخانا؟
ومرادُ النفوسِ أصغرُ من أن نتعادى فيه وأن نتفانى

نحتاج إلى ترشيد الجهود، إلى التسامي عن المعارك الهامشية حول اسم ورمز، أو المجادلة عن حظِّ النفس باسم الدفاع عن الدين..، أو الأنانية الفكرية الضيقة في (أنا) الفردية أو (نحن) الحزبية.

كذلك نحن بحاجة إلى التسامي عن توزيع التهم؛ فلا نشق الصف بتعبير الآخر بشق الصف، أو لا نقبل اجتهادهم لكونهم لم يقبلوا اجتهادنا! -ما دام في دائرة الاجتهاد الشرعي-.

كل هذا لا يمنع من الرجوع إلى أهل العلم، ورعاية حقهم، وحفظ سابقتهم ولاحقتهم، ونصحهم، وعتابهم، والرد عليهم

ببيان ما أصابوا وما أخطؤوا فيه، وتجنب التعصُّب، والتجـــرد لله، والاحتكام إلى الدليل.. إلى آخر الكلام المعروف.. الكلام الـــذي يقوله الكثير، الكلام الذي تسهل كتابته ويصعب تطبيقه!

لما اقترب التتار من دمشق سنة ٧٠٢هـــ في شهر شعبان، جاء شيخ الإسلام العالم المجاهد ابن تيمية فحرَّض الناس على القتـــال، وكان الناس قد خافوا؛ (ولم يبق حول القرى والحواضـــر أحـــد، وامتلأت القلعة والبلد، وازدحمت المنازل والطرقات، واضـــطرب الناس، وخرج الشيخ تقي الدين ابن تيمية صبيحة يوم الخميس من الشهر المذكور من باب النصر بمشقة كبيرة، وصـــحبته جماعـــة ليشهد القتال بنفسه ومن معه؛ فظنوا أنه إنما خرج هارباً، فحصل اللوم من بعض الناس، وقالوا: أنت منعتنا من الجَفَل وهـــا أنـــت هارب من البلد؟ فلم يرد عليهم!!)[1]

---

(1) البداية والنهاية، في ذكر وقعة شقحب، من أحداث سنة ٧٠٢هـــ.

وكلامٌ سيء قد وقــرت   أذني عنه وما بي من صممْ!

ابن تيمية يهرب من البلد! سبحان الله! ولكن الوقت عنــده -رحمه الله- ليس وقت أنت هربت وأنا لم أهرب!

نحتاج كذلك إلى تقليل القيادات! نعم؛ من المستحيل -حاليــاً على الأقل- أن تجعل الأمة تحت قيادة واحدة، ويفيئون إلى رايــة واحدة، ويستمعون إلى شيخ واحد أو صوت واحد، ومع ذلــك فلا يصلح أبداً أن تموج الأمة في عشرات الآلاف من الرؤوس في عشرات الآلاف من الطرق والتوجهات! وتكــون كمــا قيــل: (جاءت إليك لجنة، تبيض لجنتين، تفقسان بعد جولتين عن ثمان، وبالرفاء والبنين تكثر اللجان!).

فلو فاءت كل فئة إلى أكبر رأس لها -من أهل العلم- تحســبه يخشى الله، ويعلم عن الله، وأنه على الحق؛ فتستمع له، وترد إليه، وتصدر عنه، وتقترب منه، وتناقشه فيما ترى، ولا مانع أن تخالفه في الرأي والعمل إذا صحَّ عندها الدليل، ولكن على الأقل لا تخبط

في الآراء خبط عشواء.

والمقصود هنا تقليل القيادات الموجِّهة، أما قيـــادات العمـــل والتفعيل والتنفيذ فنعم، بل وزد؛ لأن الأمة لن تستوعبها الرؤوس ولا الجماعات الموجودة ولو تضاعفت، بل ينبغي أن نُفَعِّل الأمـــة كل الأمة..

ثامناً: تفعيل الأمة .. كل الأمة

كل الأمة؛ الصغير والكبير، والرجل والأنثى، الغني والفقير وما بينهما، الصحيح والمريض، والأعرج والمشلول، حتى البر والفاجر وآخرين خلَّطوا، بل حتى المبتدع وشبه المبتدع -ما لم يخرج عن الإسلام-، هذا فضلاً عن الجماعات المسلمة بكل الأسماء وفي كل الاتجاهات..

تريد مهذَّباً لا عيب فيه! وهل عودٌ يفوح بلا دخانِ؟

العمل للأمة واجب الجميع؛ لأنها أزمة الجميع، ولأنَّا نحتاج إلى كل الطاقات، وهي أوسع من فئة أو أفراد أصلحوا ما بينهم وبين الله، وبالطبع؛ فلا بد أن يكون التفعيل وفق ما يرضي الله، وأن تصب مصلحته فيما يرضي الله، وأن يبقى النصح والعتاب، وربما البغض في الله، بما يوافق شرع الله..!

نحتاج أولاً: إلى إيقاظ الأمة، إلى نفض بقايا النوم، إلى إحيـــاء الموات وبعث الجماد.

نحتاج ثانياً: إلى تجييش الأمة، إلى الكلمة التي تستنهض همتها، إلى الصورة، والخطبة، والقصة، والعاطفة.

نحتاج ثالثاً: إلى التغاضي شيئاً ما، وإلى تهدئة لهجة العتاب شيئاً ما، وإلى تأجيل الخصومات الداخلية، وتجاوز الخلافات الشكلية.

في الهجرة؛ يخرج نبي الأمة ﷺ وخليفته، فتموِّنه أسماء الفتـــاة وعائشة الطفلة، ويعاين له عبد الله الشاب، ويخفي أثره عامر بـــن فهيرة الراعي.

في الخندق، والأزمة أزمة الأحزاب.. يعمل الجميع، الرجـــال يحفرون، ويحملون الصخور، ويحرسون الثغور، سلمان يخطـــط، وعلي يقصف رأس من يعبر الخندق، وعبد اللَّه بن رواحة وخوات ابن جبير يتحسسان أخبار قريظة، حتى امرأة جابر تصنع طعامـــاً يبارك الله فيه فيكفي أهل الخندق، وحتى عبد الله بن الزبير الطفل

الصغير يراقب من على سور الحصن، وحتى عبد الله بن أم مكتوم الرجل الضرير يولّيه رسول الله ﷺ «مديراً» لأمور المدينة..

و«لصوت أبي طلحة في الجيش أشد على المشركين من فئة»، أو قال: «خير من ألف رجل»[١].. وهو صوت! وشِعْر ابن رواحة «أسرع فيهم من نضح النبل»[٢].. وهو شعر، والنبي ﷺ يقـــول: «جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم وأيديكم»[٣].

في أزمة الردة؛ تنتفض الأمة كلها: أبو بكر يفتي ويوجه ويعقد الألوية، بل ويقاتل بنفسه في ذي الحسي والقَصَّة، علـــي والـــزبير وطلحة وسعد يحرسون أنقاب المدينة، وآل مقرن في معـــركة مع الأعراب، وأسامة إلى الروم، وخـــالد إلى البطاح، وعكـــرمة إلى

---

(1) من مجموع روايات عند أحمد: (٣ / ١١٢)، (٣ / ٢٤٩)، والحـــاكم ج٣، حديث ٥٥٠٣، من حديث أنس رضي الله عنه.

(2) رواه الترمذي عن أنس، رقم (٢٨٤٧)، في قصة دخول النبي ﷺ مكـــة وعمرة القضاء.

(3) رواه أحمد: (٣ / ١٥٣).

اليمامة، وعمرو إلى الشمال، والعلاء إلى البحرين، وعديّ يثبِّت أهل الطائف، وسهيل يُثبِّت أهل مكة، إلى آلاف الأسماء والمهمات خلفها الأمة كلها..

في القادسية؛ يفترسون الفرس بجيش فيه سعد بن وقاص القائد المصاب، وفيه أبو محجن الثقفي شارب الخمر مجلود الظهر.. ولكنه يحب الله، وفيه ربعي بن عامر الخطيب المؤمن الذي يقول: إن الله ابتعثنا لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة ربِّ العباد.

بل وانظر إلى زمن صلاح الدين بطل (حطين)، والمظفر قطز بطل (عين جالوت)، وابن تيمية بطل (شقحب)؛ اقرأ الأخبار، واسبر الرجال، وتفحص الفهارس؛ لتجد أن الأمة -مع انتصاراتها الشهيرة- لا تخلو من ضعف وتقصير، ومعاص وبدع، وشغب وخصومات، فالكمال عزيز، ومن اشترط للنصر أن تعود الأمة كلها «جيلاً فريداً» كجيل الصحابة؛ فقد اشترط محالاً، وغفل عن سيرة الأمة..

وقد أجمعوا أن الجهاد ماضٍ مع كل إمام مسلم؛ بر أو فاجر، فإذا جاز أن تقاتل الأمة خلف إمام فاجر -في سبيل الله طبعاً-؛ ألا يجوز أن يكون في جيشها الفاجر وشبه الفاجر؟ و«إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر»[1].

---

(1) البخاري في كتاب الجهاد والسير، رقم (٣٠٦٢)، ومسلم في كتاب الإيمان، رقم (١٦٢).

تاسعاً: الاحتساب

وكما أن الخفافيش العلمانية تخرج في الليل، وتتنفذ وتضغط وتستفز؛ وربما تبتز، وقد تسكت عنها السلطة بحجة الأزمة؛ فلا بد للمرابطين الساهرين على حصون الأمة أن يصطادوا الخفافيش، أن يطاردوا اللصوص، وأن يفعلوا شيئاً ما.

فمن الاحتساب: الاحتساب على المرأة، وحياطتها وصيانتها، وحراسة فضيلتها، وقد عوَّدنا أبناءُ الظلام أن يتسللوا في الأزمات، فيعضُّون، وينهشون، ويتقيؤون سمومهم[1]؛ ولقد كشفهم لك الشيخ بكر أبو زيد يوماً فقال: (وفي أيامنا هذه كفأ الجناة المكتل

(1) في ذلك حوادث متكررة؛ أشهرها المظاهرة النسوية في ميدان الإسماعيلية بقيادة صفية زغلول سنة ١٩١٩هـ، وذلك في غضون الثورة المصرية ضد الاحتلال الإنجليزي النصراني، حين وقفن أمام ثكنات قصر النيل وهتفن ضد الاحتلال، ثم -بتدبير سابق ودون مقدمات ظاهرة- خلعن الحجاب وألقين به إلى الأرض، وسكبن عليه البترول وأشعلن فيه النار! كما في (قضية تحرير=

مملوءاً بهذه الرذائل.. بكل قوة وجرأة واندفاع، ومن خبيث مكرهم تحين الإلقاء بها في أحوال العسر والمَكْره وزحمة الأحداث! وهذه الدعوات الوافدة المستوفدة قد جمعت أنواع التناقضات ذاتاً وموضوعاً وشكلاً؛ فإذا نظرت إلى كاتبيها وجدهم يحملون أسماء إسلامية، وإذا نظرت إلى المضمون والإعداد وجدته معول هدم في الإسلام لا يحمله إلا مستغرب مُسيَّر، أُشرب قلبه بالهوى والتفرنج.. أفمثل هذا الفريق الفاشل يجوز أن تُنصب له منابر الصحافة ويوجه الفكر في الأمة؟.. عارٌ والله!...

هذا وليعلم أن الدعوة إلى السفور والتبرج وترجيل المرأة ليست قاصرة على الصحافة فحسب؛ بل هناك أدوات أخرى تعمل بجهدٍ جهيد إلى ذلك؛ من إذاعات، وتلفزة، وقنوات، وشبكات، وكتب، وقصص.. وغيرها؛ كلها تشترك في مسارعة الخطى إلى نشر التغريب بين المسلمين، وتحملهم على الخروج على أحكام

=المرأة)؛ المجرد من كتاب واقعنا المعاصر، لمحمد قطب، ص٢٢، وانظر: عودة الحجاب، لمحمد بن أحمد إسماعيل، والمؤامرة على المرأة المسلمة، لأحمد فرج.

دينهم، وعفتهم وفضيلتهم، فنحذِّر الجميع من عقاب الله وسخطه، ونذكِّرهم بأيام الله، والله موعدهم!)[1].

غاظـــه أني حنيـــف مســـلمٌ وهو في اللذات واللـــهو تبـــعْ
فهو كالخفاش يعثو في الـــدجى فإذا ما أشرق الصبح انقشـــعْ

ومن الاحتساب: الاحتساب على منع الظلم؛ وهذا من أعظم الأعمال المتوجبة على أهل العلم، وما الحرب إلا ما علمتم وذقتمُ؛ خاصة إذا ماتت الأمانة، وفرخت الأنانية، وعاش الناس في طبقية بشعة؛ يفتقر فيها الفقير ويفحش فيها الغني، وتُمتص دماء النـــاس هنا وهنا، ويُضيق عليهم... والحجة فيها إغاثة الشـــعب وعـــون الشعب.

ولا يصح أن يجد الناسُ العالم يقول لهم : لا. لمعصية عملوها، ثم لا يجدونه يحامي عنهم الظلم وهو من أفحش المعاصي..!

---

(1) ثم ساق –حفظه الله– جملة من التوجيهات؛ كما في حراسة الفضـــيلة– مقتطفات من ص ١٢٩ – ١٤٩.

لما ابتلع التتار بغداد؛ ساروا إلى حلب فابتلعوها سنة ٦٥٧هـ، ثم ساروا، فأرسل صاحب دمشق إلى أهل مصر يطلب منهم النجدة لقتال المغول الذين اجتازوا نهر الفرات؛ فجمع الأمير قطز -القائم على تدبير المملكة المصرية- الفقهاء بالقلعة، وأطلعهم على الرسالة، ورأى قطز أن الحرب تقتضي مالاً كثيراً وخزانة الدولة خاوية، فلا بد من فرض ضرائب جديدة على الرعية لتجهيز جيش قوي يصدُّ زحف التتار.

وافق الأمراء المماليك والقادة والقضاة، لكن سلطان العلماء العز بن عبد السلام أبى ذلك -وكان عمره أزيد من ثمانين-، وجعل يحذرهم؛ حتى اتفقوا على قوله -رحمه الله-، وخلاصة ما قال: إنه (إذا طرق العدو بلاد الإسلام وجب قتالهم، وجاز أن لا يبقى في بيت المال شيء من السلاح والسروج الذهبية والفضية والمزركشات... لكن لا بد أن تدفع أيها السلطان أنت وجميع الأمراء ما لكم من الحوائص -أي أحزمة الخيل- الذهبية والآلات

الفضية، والجواري والوصائف، ويقتصر كل الجند على سلاحه، ومركوبه، ويتساووا هم والعامة.. وأما أخذ الأموال من العامة مع إبقاء الأموال والآلات الفاخرة في أيدي الجند، فلا!) وأجمعوا الرأي على تجنيد المسلمين لقتال المغول[1].

وأخذوا بقوله، ونصر الله الدولة المسلمة في معركة (عين جالوت)، ووقاهم الله عاقبة الظلم، والعرب تقول: البغي آخر مدة القوم!:

والبغيُ يصرعُ أهلَه والظلمُ مرتعه وخيمُ
والحربُ صاحبُها الصَّليبُ على تلاتلها العَزومُ
من لا يملُّ ضِراسَها ولدى الحقيقة لا يخيمُ
واعلم بأن الحربَ لا يستطيعها المرِحُ السؤومُ!

---

(1) انظر: البداية والنهاية، في أحداث سنة ٦٥٧هـ، وفي ترجمة العز بن عبد السلام، في وفيات سنة ٦٦٠هـ، وانظر: النجوم الزاهرة، لابن تغري بردي، (٧ / ٧٢).

ومن الاحتساب: الاحتساب على رعاية الناس، وحفظ أمنهم، وتدبير معيشتهم، كل بحسب موقعه وقدرته.. في أهله أو قرابتـه، في مسجده، أو حـيِّه، أو بلده..، خاصة إذا اشـتدت الأزمـة وارتخت القبضة التي تنظم الأمر وتدفع اللصوص؛ فلا بد لعلمـاء المسلمين وأعيانهم أن يسوسوا الناس.. أن يصنعوا لهـم الموقـف، ويقوموا عليهم.

لا تتركوا للناس تدبير أنفسهم؛ فهي لك أو لأخيك أو للذئب!

والأزمة متفاوتة، وإدارتها متفاوتة كـذلك؛ ولكـل حادثـة حديث، لكن المقصود أن يعملوا في غلبة الأزمة على تنظيم الناس، وتوزيع الأدوار، وضبط الموقف؛ سواء كان ذلـك بمجموعـات لضبط الأمن -للمدينة أو الحي-، أو بتدبير المعيشة، أو بالتنسـيق بين التجار والضعفة، أو بتوفير الحد الأدنى من أسـس المعيشـة -كموارد الماء، والكهرباء، والغذاء-، والتعاون في ذلك أو غـير ذلك بما يلائم الحال، وهكذا.. وإن كان أعظم الأعمال المتوجبـة

عليهم هو ربطهم بالله، وتقوية إيمانهم، ورفع وعيهم، وتعليمهم دينهم.

قال ابن كثير -رحمه الله- في حوادث سنة ٦٩٩هـ:

(هذا وسلطان التتار قد قصد دمشق بعد الوقعة؛ فاجتمع أعيان البلد والشيخ تقي الدين ابن تيمية في مشهد عليٍّ، واتفقوا على المسير إلى قازان لتلقيه وأخذ الأمان منه لأهل دمشق، فتوجهوا يوم الاثنين ثالث ربيع الآخر، فاجتمعوا به عند النبك، وكلمه الشيخ تقي الدين ابن تيمية كلاماً قوياً شديداً فيه مصلحة عظيمة؛ عاد نفعها على المسلمين، ولله الحمد).

وقال -رحمه الله- في حوادث سنة ٧٠٠هـ -لما كان السلطان بمصر فأراد القدوم لنصرة الشام ثم تراجع-:

(وكان السلطان قد وصل إلى الساحل فلم يدركه [ابن تيمية] إلا وقد رجع إلى القاهرة وتفارط الحال، ولكنه استحثهم على تجهيز العساكر إلى الشام إن كان لهم به حاجة، وقال لهم فيما

قال: إن كنتم أعرضتم عن الشام وحمايته أقمنا له سلطاناً يحوطه ويحميه ويستغله في زمن الأمن.

ولم يزل بهم حتى جُرِّدت العساكر إلى الشام، ثم قال: لهم لو قُدّر أنكم لستم حكام الشام ولا ملوكه واستنصركم أهله؛ وجب عليكم النصر، فكيف وأنتم حكامه وسلاطينه، وهم رعاياكم وأنتم مسؤولون عنهم؟ وقوَّى جأشهم، وضمن لهم النصر هذه الكرة).

عاشراً: إشاعة الوعي

إن كانت الأزمة ضربة؛ فلا بد أن نستيقظ..

لقد نامت الأمة.. نومةً شتويةً طويلةً عن سنن الله، وعادة الحياة، وكيد الأعداء.. نومةً جلبها الخمولُ وحبُّ الدنيا، نومة وزَّع فرشها ووسائدها أعداء الخارج والداخل الذين يخدرون الأمة، يخدرونها، يهدهدونها، ويقرؤون عليها قصص ما قبل النوم في المجالس.. في الإعلام.. بل وعلى المنابر، يطيرون حولها كذُبابة (تسي تسي) التي تشيع النوم..

وجاءت الضربة خلف الضربة؛ كاليد التي توقظك من نومك اللذيذ.

نعم.. الوعي ثقيل أحياناً.. ولهذا قال لك المتنبي:

ذو العقل يشقى في النعيم بعقلهِ وأخو الجهالة في الشقاوة ينعمُ!

شعورٌ مؤلمٌ أن تشعر بأن الحياة لا تصفو، أن تشعر بقسوتها،

بكَبَدها، بمخططات الأعداء، بل وتنفيذهم، ليس هذا فقط، بل وأن عليك أمام كل هذا واجباتٍ.. وحركةً.. وثمناً.. وأنه لا بد أن تتعلم وتخطط وتنفذ، ولهذا قال لك المتنبي مرة أخرى:

تصفو الحياةُ لجاهلٍ أو غافلٍ عما مضى فيها، وما يتوقَّعُ
ولمن يغالطُ في الحقائقِ نفسَه ويسومها طلبَ المحالِ فتطمعُ

ولكن لا بد أن تشعر -أي تتألم!-، هذه سنَّة الحياة: ﴿**لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ**﴾[**البلد: ٤**]، إنها العبودية لله.. تتمثل في كل تفاريع الحياة..كلها بلا استثناء..

الأزمة صورة توضيحية؛ تجلب انتباه الناس، الأزمة خريطة مليئة بالمواقع! يبين فيها العالم بالله مواضع سنن الله، فلا بد لنا أن نشيع الوعي؛ وخاصة أن الأزمة فترة يتسارع فيها «نمو» المجتمعات النمو العقلي، وهي للأفكار فترة تلاقحٍ وتزاوجٍ -وعراكٍ أحياناً.

أول الوعي: أن تشعر ببعدك عن الله وحاجتك إليه، وفقرك إليه، وبتقصيرك في حقه، وحق دينه، وحق عباده.

ومن الوعي: الوعي بالمنافقين؛ الخفافيش البشرية التي تكمن في نهار الرخاء، وتخرج في ليالي الأزمة.

لقد ركب المنافقون في عهد الرسول ﷺ موجة (الصحوة) بعد انتصار بدر، وتمضمضوا بالعبارات الإسلامية المطاطة، فلما أصيب المسلمون بأزمة أُحُد ظهرت قرونهم؛ ففضحهم الله -كما في سورة آل عمران، والنساء-.

وأصيب المسلمون بأزمة الخندق فظهر المنافقون؛ ففضحهم الله -كما في سورة الأحزاب-.

وأصيب المسلمون بأزمة الإفك فظهر المنافقون؛ ففضحهم الله -كما في سورة النور، والمنافقون-:

جزى اللهُ الشدائدَ كلَّ خيرٍ عرفتُ بها عدوي من صديقي!

ومن الوعي: الوعي بعداوة الكفار، الكفار الذين لن يرضيهم شبر الأرض ولا برميل النفط، ولا الكلمة والبسمة؛ فضلاً عن السكون والسكوت، والله يقول لك: ﴿**وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ**﴾[**البقرة**: ١٢٠].

ومن الوعي: الوعي بسنن الله في المدافعة: ﴿**وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا**﴾[**الحج**: ٤٠]، في طريق النصر: ﴿**وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ**﴾[**الحج**: ٤٠]، في عاقبة الظلم الذي أهلك أهله..

تحكَّموا فاستطالوا في تحكمهم فأُهلكوا، وكأنَّ الأمر لم يكنِ
لو أنصَفوا أُنصِفوا، لكن بغوا فبغى عليهم الكفرُ بالأحزان والمحنِ
فأصبحوا ولسان الحال ينشدهم: هذا بذاك؛ ولا عتبى على الزمنِ!

ومن الوعي: الوعي بأنفسنا، بمواضع قوتنا وضعفنا، بمشكلاتنا، الأحداث محكٌّ تجربةٍ لمناهجنا، لعلاقاتنا.. لصبرنا.. لتفكيرنا، وأهم من ذلك كله لإيماننا.. الأحداث أشعة «إكس» تعطيك الصورة

الهيكلية ومواضع الكسر!..

«ما دخل العدو من حدودنا.. لكنهم تسرَّبوا –كالنمل– من عيوبنا!».

ومن الوعي: الوعي بمعنى النصر وحقيقته، وبسبيل النصر وطريقته، وبأن الثبات في سبيل الله نصر، وهو عين المصلحة؛ ولو قُطع الرأس، وفُقئت العين، وعرجت الرجل، ولو سُجن الجسد، وكُمِّم الصوت، ولو ذهب المال وانقطع الراتب، فهو نصر كنصر أصحاب الأخدود، الوعي بأن الله يبتلي المؤمنين ويزلزلهم حتى يقول الرسول ﷺ والذين آمنوا معه متى نصر الله؟ وحتى يترل من ركب (موجة الصحوة)؛ فلا يبقى إلا المتقون.. ﴿**وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ**﴾[**القصص**:٨٣].

إنها دروسٌ تحتاج إلى وعي:

دروسٌ ولكن بغير اعتبار	**أيصحو الجمادُ إذا ما استُثيرْ؟!**
هو الحقُّ مهما طغى باطلٌ	**له النصر يُوم التزال الأخيرْ**
ولله سهمٌ سيمضي غداً	**ولو كره المستبدُّ الكفورْ!**

حادي عشر: إلى الله

وأخيراً إلى الله..

وما جعلت هذا الموقف هنا أخيراً لأنه مهمل، ولا أتيت به تكميلاً للقسمة و«أسلمة» للبيان.. ولكن جعلته هنا ليكون آخر ما تقرأ؛ لتذكره فلا تنساه، لتحفظه حفظاً، وتحفره في ذاكرتك، وتكتبه في يدك، وتجعله في خاتمك..

إلى الله؛ فالخير بيديه، والشكوى إليه، والأمر منه وإليه.

إلى الله؛ فهو أمان الخائفين، وأنس المستوحشين، ورب العالمين.

﴿**فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ** (٥٠) **وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِين**﴾[**الذاريات:** ٥٠-٥١]

(وأقربُ بابٍ دخل منه العبد على الله -تعالى- هو الإفلاس! فلا يرى لنفسه حالاً ولا مقاماً ولا سبباً يتعلق به ولا وسيلة منه يمنُّ بها؛ بل يدخل على الله -تعالى- من باب الافتقار الصِّرف

والإفلاس المحض، دخول من كسر الفقر والمسكنة قلبه، حتى وصلت تلك الكسرة إلى سويدائه فانصدع، وشملته الكسرة من كل جهاته، وشهد ضرورته إلى ربه وكمال فاقته وفقره إليه!)[1].

في يوم بدر جاءت قريش، جاءت بجيش من خيلها وجيش من خيلائها، جاءت بخيلائها وانتفاشها، جاءت برؤوسها، يسيرون في غابة أشجارها السيوف والرماح، ألفٌ من المقاتلين الحنقين المغضبين.. خرجوا بطراً ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله، وزيَّن لهم الشيطان أعمالهم.

وجاء رسول الله ﷺ والمؤمنون في ثلاثمائة رجل، جاؤوا وليس لهم غير فرسين، وغير جِمَال يتعاقب على الواحد منها الثلاثة والأربعة والخمسة، جاؤوا بالثياب المرقعة..

ونام الصحابة «إلا رسول الله ﷺ؛ يصلي تحت شجرة ويبكي حتى أصبح!»[2]، ذهب إلى الله.. وقد «بات رسول الله ﷺ تلك

---

(1) ابن القيم، في الوابل الصيب: ص ٨ .

(2) تفسير ابن كثير: (٢٩٢/٢)، وانظر: ابن حبان: (١ / ٤٠٩).

الليلة يصلي إلى جذع شجرة هناك، ويكثر في سجوده أن يقول: يا حيُّ يا قيوم! يكرِّر ذلك»[١]

جمع الشجاعةَ والخشوعَ لربهِ ما أحسن المحرابَ في المحرابِ!

وأصبح الصبح وتراءى الجمعان.. وجاءت الـولاءات المتحـدة القرشية! (فلما أقبلت ورآها رسول الله ﷺ تصوِّب من العقنقـل -وهو الكثيب الذي جاؤوا منه- إلى الوادي، فقال: «اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها؛ تحادُّك وتكذب رسولك، اللهم أَحِنْهم الغداة»[٢].

ثم ذهب ﷺ إلى الله!

قال ابن عباس: حدثني عمر بن الخطاب قال: لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وهم ألف، وأصحابه ثلاثمائة وتسـعة عشر رجلاً، فاستقبل نبي الله ﷺ القبلـة ثم مـدَّ يديـه فجعـل

---

(1) انظر: البداية والنهاية، في أحداث السنة الثانية: (٥ / ٨٢).

(2) السيرة النبوية، لابن هشام، (١٦٨/٣).

يهتف بربه: «اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم آت ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تُعبد في الأرض»، فما زال يهتف بربه ماداً يديه مستقبل القبلة؛ حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه، ثم التزمه من ورائه وقال: يا نبي الله! كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك. فأنزل الله -عز وجل-: ﴿**إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُرْدِفِينَ**﴾[**الأنفال**: ٩]، فأمده الله بالملائكة)[1]

عن علي بن أبي طالب ﷺ قال : «لما كان يوم بدر قاتلتُ شيئاً من قتال، ثم جئت مسرعاً لأنظر إلى رسول الله ﷺ ما فعل، فجئت فأجده وهو ساجد يقول: «يا حي يا قيوم!» لا يزيد عليها، فرجعت إلى القتال ثم جئتُ وهو ساجد يقول ذلك، ثم ذهبت إلى القتال، ثم جئت وهو ساجد يقول ذلك، فلم يزل يقول

---

(1) رواه مسلم في كتاب الجهاد والسير، رقم (٣٣٠٩)، وأصله في البخاري.

ذلك حتى فتح الله عليه!»[1].

ولقد ذكرتُ الله ساعة خوفهِ للباسلين مع القنا الخطَّارِ
فنسيتُ كلَّ لذائذٍ جياشةٍ يوم الوغى للواحد القهارِ!

إلى الله يوم أزمة الخندق..

يوم بلغت القلوب الحناجر، وخرجت العيون من المحاجر، يرسل رسول الله ﷺ حذيفة يستطلع خبر القوم، فيرجع إليه حذيفة فإذا هو قائم يصلي[٢]!

---

(1) رواه الحاكم (١ / ٣٤٤)، والمروزي في تعظيم قدر الصلاة (١ / ٢٣٤) في باب: (فزعه ﷺ في الشدائد إلى الصلاة)، وبوب عليه الهيثمي في مجمعه فقال: باب الاستنصار بالدعاء (١٠ / ١٤٧) وحسنه، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وليس في إسناده مذكور بجرح. وقد أورده ابن حجر في الفتح وسكت عنه (٧ / ٢٨٩)؛ فهو حسن عنده.
والحديث من رواية عن عبد الله بن محمد بن عمر بن علي عن أبيه عن جده علي رضي الله عنه.

(2) التصريح بأنه كان يصلي في مسند البزار: (٧ / ٣١٨)، ومعناه في صحيح مسلم في كتاب الجهاد والسير، رقم (٣٣٤٣).

قال حذيفة رضي الله عنه: «وكان ﷺ إذا حَزَبه أمرٌ صلَّى»[1] :

لله درُّك! ما نسيتَ رسالةً قدسيةً وعِداك بالأبوابِ

أفديك ما رمشت عيونُك رمشةً في ساعة والموت في الأهدابِ

وإلى الله.. يوم قتال الترك..

قال الأصمعي: لما صافّ قتيبة بن مسلم الترك، وهاله أمرهم، سأل عن محمد بن واسع؟ فقيل: هو ذاك في الميمنة جامحٌ على قوسه، يُبصبص بأصبعه نحو السماء. فقال قتيبة: تلك الأصبع أحبُّ إلي من مائة ألف سيفٍ شهيرٍ، وشابٍّ طرير![2].

---

(1) رواه أبوداود في كتاب الصلاة، رقم (١١٢٤).

(2) سير أعلام النبلاء: (٦ / ١٢١)، وكان محمد بن واسع من العباد الزهاد؛ روى معتمر عن أبيه قال: «ما رأيت أحداً قط أخشع من محمد بن واسع» وقال جعفر بن سليمان: «كنت إذا وجدت من قلبي قسوة؛ غدوت فنظرت إلى وجه محمد بن واسع... »!

وإلى الله.. يوم قتال الروم في (ملاذكرد) عام ٤٦٣هـ..

وها أنا ذا أسوق قصتها لك كما حدَّث بها قلم ابن كثير، وما حفزني إلى ذلك إلا مشابهة الحال للحال، وكيف أن روم الأمس كروم اليوم جمعوا الناس، وساقوا المدرعات، وخطَّطوا فيما بينهم في اقتسام البلاد ونهب العباد!

قال ابن كثير -رحمه الله تعالى-: (وفيها [أي سنة ٤٦٣هـ] أقبل ملك الروم أرمانوس في جحافل أمثال الجبال، من الروم والكرج والفرنج، وعُدَد عظيمة وتجمُّلٍ هائل، ومعه خمسة وثلاثون... من البطارقة، مع كل بطريق ما بين ألفي فارس إلى خمسمائة فارس، ومن الغزِّ الذين يكونون وراء القسطنطينية خمسة عشر ألفاً، ومعه مائة ألف نقّاب وحفّار، وألف روزجاري [أي عامل]، ومعه أربعمائة عجلة، تحمل النعال والمسامير، وألفا عجلة تحمل السلاح والسروج والعرّادات والمجانيق؛ منها منجنيق يمده ألف ومائتا رجل، ومن عزمه -قبحه الله تعالى- أن يجتثَّ الإسلام

وأهله، أقطع بطارقتَه البلاد حتى بغداد!! واستوصى نائبها بالخليفة خيراً! فقال له: ارفق بذلك الشيخ فإنه صاحبنا! ثم إذا استوسقت ممالك العراق وخراسان لهم مالوا على الشام وأهله ميلةً واحـــدة فاستعادوه من أيدي المسلمين، واستنقذوه فيما يزعمون، والقـــدر يقول: ﴿**لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ**﴾[**الحجر**: ٧٢].

فالتقاه السلطان ألب أرسلان في جيشه وهم قريب من عشرين ألفاً؛ بمكان يقال له الرهوة في يوم الأربعاء لخمس بقين مـــن ذي القعدة، وخاف كثرة المشركين، فأشار عليه الفقيه أبو نصر محمد ابن عبد الملك البخاري بأن يكون وقت الوقعة يوم الجمعة بعـــد الزوال حين يكون الخطباء يدعون للمجاهدين.[1]

---

(1) ويشبه هذا ما فعله قطز حين أخر القتال يوم عين جالوت، حتى زالـــت الشمس وحضرت الصلاة ودعا الناس لهم في خطبهم يوم الجمعة الخـــامس والعشرين من رمضان عام ٦٥٨هـــ؛ كما في البداية والنهاية، في أحـــداث سنة ٦٥٨هـــ.

فلما تواجه الفتيان نزل السلطان عن فرسه وسجد لله عز وجل، ومرَّغ وجهه في التراب، ودعا الله واستنصره؛ [وبكى وتضرع] فأنزل نصره على المسلمين ومنحهم أكتافهم؛ فقتلوا منهم خلقاً كثيراً لا يحصون كثرة، وأُسر ملكهم أرمانوس، أسره غلام رومي، فأمَّره السلطان وأعطاه شيئاً كثيراً.

وقد كان هذا الغلام عُرِض على نظام الملك الوزير في جملة تقدمت فلم يقبله؛ فقال له سيده: إنه.. وإنه.. -يثني عليه-، فرده [أي رده إلى الجيش] وقال كهيئة المستهزئ به: لعله يجيئنا بملك الروم أرمانوس أسيراً!! فوقع الأمر كما قال، فلله الحمد والمنة).

إليك؛ وإلا لا تشدُّ الركائبُ ومنك؛ وإلا فالمؤمِّلُ خائبُ
وفيك؛ وإلا فالرجاءُ مضيعٌ وعنك؛ وإلا فالمحدِّثُ كاذبُ!

وإلى الله.. بالدعوات، واللـهفات، والاستغاثات.. بقنوت وصلوات..

بقائمة من الأدعية في حال الفتن والكرب وخوف الأعداء.. نحفظها ونحفِّظها أبناءنا ومَنْ وراءنا.

هذا؛ وإن تعجب فاعجب لقوم يحاربون الله ويعادون دينه ويقاتلون أولياءه، قد جندوا أنفسهم للشيطان، وقتلوا النفوس، وسرقوا الأوطان، ومع ذلك فروا -بزعمهم- إلى إلههم!:

روت مفكرة الإسلام في موقعها بتاريخ ١٤٢٤/١/٢٧هـ فقالت :

«رغم أن الجنود الأميركيين الذين يشاركون في القتال ضد العراق هم الذين يواجهون الخطر في أرض المعركة إلا إنه طُلب منهم الدعاء من أجل رئيسهم جورج بوش، ووُزعت كتيبات على آلاف من رجال مشاة البحرية الأميركية [المارينز] تحمل عنوان «واجب المسيحي»، وتحتوي تلك الكتيبات على أدعية،

كما تحتوي على جزء يتم نزعه من الكتيب لإرساله بالبريـد إلى البيت الأبيض؛ ليثبت أن الجندي الذي أرسله كان يصلي من أجل بوش! وطبقاً لأحد الصحفيين المرافقين لقوات التحالف؛ فإن هذا الجزء يقول: (لقد صليت من أجلـك، ومـن أجـل عائلتـك، وموظفيك، وجنودنا؛ في هذه الأوقات التي تسودها حالة عـدم اليقين والاضطراب؛ ليكن سلام الله دليلك!)، ويقـدم الكتيـب الذي وضعته جماعة تسمى «ان توتش منيستريز» صلوات يوميـة من أجل الرئيس الأميركي، وتقول صلاة يوم الأحد: (ادع مـن أجل أن يلجأ الرئيس ومستشاروه إلى الله وحكمته كل يوم، ولا يعتمدون على فهمهم الخاص!!). أما صلاة الاثنين فتقـول: (ادع أن يكون الرئيس ومستشاروه أقوياء وشجعاناً لعمـل الصـواب بغضِّ النظر عن النقاد)!!»[1]

---

(1) انظر الموقع:
www.islammemo.cc/news/one_news.asp?IDnews=754

تمشي المناكرُ بين أيــدي خيلــه أنَّى مشى، والبغــيُ والإجــرامُ
ويقوده باسم الكتــاب أقســةٌ نشطوا لما هو في الكتابِ حــرامُ
عيسى! سبيلك رأفة وبشــارةٌ للعــالمين ورحمــةٌ وســلامُ
ما كنت سفَّاك الدِّماءِ ولا امرءاً هان الضعافُ عليــه والأيتــامُ

وبعد:

فهذه أزمة.. وهذه مواقف، جاءت إليك والعدوُّ يجوس خلال الديار، وبغداد يدبُّ عليها التتار.. التتار الجدد..

أزمة كما تدعوك لأن تهتم وتجد؛ فهي تدعوك لأن تتفاءل..

تفاءل:

فإن سجوفَ الليلِ تُخفي طلائعاً مجاهدةً رغم الزعازع تخرجُ

فيا مسلم..

التفت إلى الله، وأبشر؛ فجيشُهم مكسور، وجمعهم مــدحور، والدوائرُ على الباغي تدور، سيُهزم الجمع ويولون الدبر.

ثم.. مَنْ هم؟ ما عندهم؟ ما قوتهم؟ تضاءلت القوى أمام قــوة الله، وتقزَّمت الجيوش أمام جند الله..﴿**أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّــهَ الَّــذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً**﴾[**فصلت**:١٥].

فيا للحمقى أفراخ التتار إذ يحاربون.. أيحاربون الله؟!

أفرحوا ببغداد؟ لقد جاء شيء اسمه «التتار» إلى بغداد فعاث بها وحرق وسرق، ثم هلك، ورماه التاريخ في مزبلته.. ومضى التاريخ.

إنها سلسلة طويلة؛ غُلَّ بحلقاتها: فرعون الغريق في أنهاره، وقارون المطمور في داره، وأبو جهل المنتن في قليب بدر، ومسيلمة، والأسود، ورستم، وريتشارد، وجنكيزخان، وهولاكو، ونابليون، وكليبر، وأتاتورك، وستالين، وهتلر، وهيلاسيلاسي... إلى مئات الأسماء المتكدسة في مزبلة التاريخ.. أسماء تجبرت يوماً وظنت أنها ملكت التاريخ.

فيا مسلم؛ لا عليك، تفاءل!.. فابتسامتك قوسٌ يرسل سهام العزة لتقاتل العدو، تفاءل! لأن تفاؤلك أول النصر، تفاءل! فـ «اليأس لا يصنع شيئاً»، تفاءل! فهي عاصفة وستمضي يوماً، تفاءل! ففي الأفق بشائر.. ألا ترى عودة الأمة إلى الله، وتلاحمها، وتمييز صفها، وسقوط الرايات الزائفة، وصعود الصحوة العلمية والدعوية والجهادية التي جهرت وبهرت.

تفاءل!:

«بشِّر هذه الأمة بالسناء، والرفعة، والنصـــر، والـــتمكين في الأرض، فمن عمل عملَ الآخرة للدنيا لم يكن لـــه في الآخـــرة نصيب»[١]

اثبت وثبِّت، ازرع الإيمان، ووضِّح الدين، اهتم وأشعل الهمة، رصَّ الصف، وفعِّل الأمة، وانشر الوعي، وفر إلى الله؛ وتفاءل:

يا رفيقَ الطريقِ هوِّن عليك الأمر لا بدَّ مـــن زوال المصـــابِ
سوف يصفو لك الزمان وتأتيـــك ظعـــونُ الأحـــبة الغيَّابِ
وليالي الأحزانِ ترحل، فالأحزانُ مثـــل المســـافرِ الجـــوَّابِ!

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات

وصلى اللهم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

(1) رواه أحمد، رقم (٢٠٧١٦)؛ عن أبي العالية عن أبي بن كعب.

فهرس